الدرس الرابع

النبوة: مع اقتراب سِنه الشريف من الأربعين ، كان ـ ﷺ ـ يُكثر من الوِحْدة والخلوة في غار حراء ، في جبل يقع قريبًا من مكة من الشرق ، يقضي فيه أيامًا ولياليَ متتابعة يَعْبُد الله . وفي ليلة الحادي والعشرين من رمضان ، وبينما هو في الغار وقد بلغ عمره أربعين عامًا ، أتاه المَلَكُ جبريل ـ عليه السلام ـ فقال له: اقرأ . قال: ما أنا بقارئ (أي: لا أعرف القراءة)، فعاوده جبريل للمرة الثانية والثالثة ، وفي الثالثة قال له: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١-٥] ، ثم انصرف عنه ، ولم يُطق رسول الله ـ ﷺ ـ البقاء في غار حراء ، فعاد إلى بيته ، ودخل على زوجته خديجة يرجف فؤاده ، فقال: «زملوني ، زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فأخبر خديجة بما حصل له ، ثم قال: « لقد خشيت على نفسي » ، فقالت خديجة: كلا، والله لا يخزيك الله أبدًا ؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ ، وتُكسب المعدوم، وتَقْري الضيف ، وتُعين على نوائب الحق[1] .

وبعد فترة قصيرة ، عاد النبي ـ ﷺ ـ إلى غار حراء ليواصل تعبده فيه ، فلما انتهى من عبادته ، نزل من الغار ليعود إلى مكة ، فلما صار في بطن الوادي ، جاءه جبريل جالسًا على كرسي بين السماء والأرض ، وأوحى إليه : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ [المدثر: ١-٥] ، ثم استمر الوحي وتتابع بعد ذلك.

لما بدأ النبي ـ ﷺ ـ دعوته ، لبَّت الزوجة الفاضلة نداء الإيمان ، فشهدت لله بالوحدانية ، ولزوجها الكريم بالنبوة ، فكانت أول من أسلم ، وحدَّث رسول الله ـ ﷺ ـ صديقه الحميم أبا بكر ، فآمن وصَدَّق بلا تردد ، ولقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ وفاء منه لعمه أبي طالب الذي كفله ورعاه بعد أمه وجده ، قد استخلص من أبناء عمه عليًّا يربيه عنده ، وينفق عليه ، وفي هذا الجو فتح عليٌّ قلبه فآمن ، ثم بعد ذلك تبعهم زيد بن حارثة مولى خديجة.

استمر النبي ـ ﷺ ـ في الدعوة السرية ، وكان المسلمون يخفون إسلامهم ؛ لأنه إذا ما اكتُشف أمر واحدٍ منهم تعرض لأقسى صنوف العذاب من كفار قريش ليردوه عن الإسلام.

---

١ – تحمل الكل : أي تساعد الذي لا يستطيع أن يستقل بأمره ، وتكسب المعدوم: أي تعطي الذي ليس عنده شيء ، وتقري الضيف : أي تكرم الضيف ، وتُعين على نوائب الحق: أي على مصائب الدنيا.